# على مبارك باشا (١)

بقلم الأستاذ على الجارم
المفتش بوزارة المعارف

فى حجرة واسعة تصان بها الكتب بدار العلوم ، يرى الداخل فى أول ملتقى بصره صورة زيتية لشيخ جليل . تحف به المهابة ، وتغضى لرؤيته العيون . تلك صورة المرحوم على مبارك باشا العالم الرياضى المهندس المؤرخ الأديب .

ترونه فى هذه الصورة ، وقد تجاوز الستين ، مظهرا للقوة الجسمية ، ومثالا لحدة الذهن ونفوذه ، سوى الخلق ، قويم القامة ، طويلا طرماحا . وقديماً قالوا : « وإن أعزاء الرجال طيالها » . عريض المنكبين ، لم تقوس الأيام قناته ، ولم يصوح الدهر نباته ، يمثل المصرى الصريح فى وجهه وجسمه وسمته ؛ جبين واسع يكاد يشف عما تحته من علم زاخر ، ورأى ثاقب ، كأن غضونه سطور دونتها التجارب ، وخطتها يمين الأيام وحاجبان مقرونان غزر شعرهما ، وقد وخطه الشيب ، يظلان عينين لهما نظرة تحار فى تأويل معناها . وتبين مرماها ؛ ففيها الجد ، وفيها الإرادة الحكيمة المبصرة ، وفيها الطموح والاستهانة بالقليل المبذول . وأنف قويم المارن يكاد يوصف بالضخامة لولا ملاءمته بقية مظاهر وجهه . وشارب أثيت الشعر ، شمله الشيب ، تحته فم أفوه ، انفرجت شفتيه السفلى قليلا كأنما كانت تحاول الابتسام فصدها الجد ، ودهمتها صرامة الرجولة ، فوقفت بين الإقدام والإحجام . ولحية كثة جثلة ، سطع فيها صبح المشيب ، فتركها فى نقاء صحف الأبرار ، وبياض أيادى الكرام .

ذلكم هو على مبارك باشا الذى سنتحدث فى حياته الليلة ، وقد أغنى

(١) محاضرة ألقيت فى محط الاذاعة

ـ رحمه الله ـ الباحثين بعده عن تلمس أخبار حياته ، وتلقفها مبدلة محرفة من أفواه أهل عصره ، فكتب ترجمة حياته بقلمه إلى قبيل وفاته بخمس سنين . وقد بسط فيها القول فى أحوال صباه ونشأته الأولى ، مما لم يظفر به التاريخ لغيره من عظماء الرجال . ولو أن كل عظيم سلك هذه السبيل لأسدى إلى الأدب والتاريخ إرثاً مجيداً . وقد كانت سنة بعض العلماء فى الأعصار الماضية أن يدونوا حياتهم بأنفسهم ، كما فعل أسامة بن منقذ وجلال الدين السيوطى . ولكن هذه السنة المحمودة لم يتنفس بها العُمُر ، ولم تبق عليها الأيام .

ولد المرحوم على مبارك باشا بقرية برنبال الجديدة بمديرية الدقهلية ، سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية ، من أسرة اشتهرت بحفظ القرآن الكريم ، والتفقه فى الدين ، فكانت فيها إمامة الصلاة والخطبة والقضاء بين الناس ؛ لذلك كانت تسمى بأسرة المشايخ ، وكان لها نصيب غير قليل من إجلال الحكام والمحكومين . ثم عصف الدهر بهذه الأسرة ، واشتد بها العسر والضيق ، فرحل أبو المترجم ، الشيخ مبارك الروجى ، بأسرته إلى الشرقية ، ثم استقر فى جوار عرب السماعنة يفقههم فى دينهم ، ويؤمهم فى صلواتهم . ولما بلغ المترجم الخامسة أرسله أبوه إلى شيخ أعمى ليلقنه مبادىء القراءة ، ثم بعث به إلى شيخ مقيم بالقرب من مساكن العرب . وكان أبوه يزوده ما يكفيه من طعام مدة أسبوع يقيمها فى كنف أستاذه الجديد . فكان يزور أهله يوم الجمعة ، ولا يعود إلى شيخه فى ذلك اليوم ـ كما يقول ـ فارغ اليد خوف شره وأذاه .

بنفسى ذلك الطفل وقد حمل ما حمل من قليل المتاع ، تاركاً أمه وما يلقاه فى ظلها من رفق وحنان وعطف ، هو كل ما يهفو إليه الطفل فى السادسة والسابعة ، إلى شيخ حطم لا يتكلم إلا بلغة العصا ، ولا يعرف

من وسائل التهذيب غير الإرهاب والتعذيب : ولقد كان ذلك المعلم عنيفاً أشد العنف ، مخيفاً أشد الإخافة ، فما أقام علىّ منقمعاً تحت حكمه سنتين ، ختم فيهما القرآن الكريم وهو فى الثامنة أو التاسعة ، حتى كره العلم والتعلم ، وعقد العزيمة صارمة على ألا يعود إليه . وأنتم ترون هذه العزيمة متجلية فى كلماته القليلة حين يقول : « ثم لكثرة ضربه لى تركته وأبيت أن أذهب إليه بعد ذلك » . وحينما أجبره أبوه على الذهاب نوى الهرب ، فما زال به أهله حتى صارحهم بأنه لا يود أن يكون فقيها ، ولكنه يريد أن يكون كاتباً . فأسلمه أبوه إلى كاتب زراعة ليعلمه الخط والحساب ؛ فقاسى علىّ عنده عنتا من شظف العيش والجوع والمهانه والخدمة ، وقد حدث أن سأله الكاتب مرة ما جُذاء الواحد فى الواحد . أى ما حاصل ضربهما ؟ فأجاب علىّ متلعثما خائفا : اثنان . وكان بيد الكاتب مقلاة فضربه بها فشج رأسه ؛ فذهب على يشكو إلى أبيه فلم ينصفه ، ففرّ وهو فى نحو التاسعة من عمره تحت ستار الليل هائما تتقاذفه الهموم ، وتطوّح به الأوجال ؛ وقد أصيب فى طريقه بالهيضة المعوية ( الكليرا ) ، فعطف عليه رجل وآواه مدة مرضه ، حتى إذا أبلّ وعثر عليه أهله بعد البحث عنه عاد إليهم . وبعد سنة عمل مساعداً لكاتب بمأمورية أبى كبير ، وكان راتبه خمسة وعشرين قرشا فى الشهر ، فأقام عنده ثلاثة أشهر فى بؤس وضنك لا يأخذ من راتبه شيئاً ، ولما أخذ حقه بيده من أموال حصلها غضب الكاتب عليه ، وأغرى به المأمور فألقى به فى السجن ، ولم ينقذه منه إلا خادم عنبر افندى مأمور زراعة القطن بنواحى أبى بير ؛ فأقام كاتبا عند عنبر هذا براتب قدره خمسة وسبعون قرشا فى الشهر . وهو هنا يحدثنا عما كان يجول فى نفسه فيقول : « إن الكتابة والماهية كانت هى السبب فى سجنى ووضع الحديد فى رقبتى ، وقد وجدت هذا المأمور خلصنى من ذلك ، فلو فعل المأمور معى مثل

مافعل الكاتب فمن يخلصنى ؟ وكانت همتى فى التخلص من كل ذلك وأمثاله، وأود أن اكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى غوائلها »

وقد أخبره فراش المأمور أن سيده إنما نال تلك المنزلة لأنه تعلم بمدرسة قصر ابن العينى التى افتتحها عزيز مصر محمد على باشا ، وأن الحكام إنما يؤخذون من المدارس ؛ فأيقظ ذلك فى نفسه آمالا نياماً . فغادر عمله وهو فيه المحب المكرم وخلى ساقيه النحيلتين للريح حتى بلغ قرية منية العز فكانت - كما يقول - فألا حسناً . ودخل مكتبها، وقد حاول أبوه أن يخرجه منه ويعود به إلى تعلم الدين أو الاشتغال بالكتابة فأبى علىّ عليه وصمم ؛ فاهتبل أبوه فرصة خروجه وقت الظهر واختطفه ، وذهب به إلى بلدته وحبسه فى الدار عشرة أيام . وهو هنا يقول : « كل ذلك ووالدتى تبكى منى وعلى ، وتستعطفنى فى الرجوع عما يوجب فراقهم. وتحلفنى أن ارجع عن هذه النية ؛ فوعدتها بالرجوع عن ذلك إرضاء لخاطرها . فأطلقونى وكانت لنا غنيمات صرت أرعاها ، وأبعدونى عن حرفة الكتابة » .

ولو أن علياً سكن إلى هذه الحياة ، استمرأ البطالة لتغير وجه التاريخ ، ولكان على مصر أن تبحث عن على مبارك آخر يضع نظاما لثقافتها ، ويرسم الطريق لنهوضها العلمى .

ولكن القدر أبى إلا أن يسمو بغلامنا الصغير ، لأن علياً أبى أن يكتفى من الحياة برعى غنيمات عجاف ؛ وكأنما كشف له فى ذلك الوقت انه سيكون راعيا للعقول ، مهذبا للنفوس ، يتنقل بها فى مروج العلم. ويوردها نمير الحياة الصافى . فتسربل الليل وخرج من داره خائفا يترقب حتى بلغ مكتب منية العز ثانية ؛ وكان أنجب تلاميذه ، فاختير مع طائفة من النجباء لمدرسة قصر ابن العينى فى سنة إحدى وخمسين ومائتين والف، وكان عمره اثنتى عشرة سنة فأقام بهذه المدرسة سنتين لقى فيهما آلاما وشدائد ، ثم انتقل

إلى مدرسة أبى زعبل ، وبقى بها ثلاث سنوات . ثم اختير لمدرسة الهندسة ببولاق ، فمكث بها خمس سنين كان فيها دائما أول فرقته . وفى سنة ستين ومائتين وألف عزم المغفور له محمد على باشا على إرسال أنجاله إلى فرنسا ليتعلموا بها ، وصدر أمره بانتخاب فريق من نجباء الطلبة ليسافر معهم ، وكان على مبارك من هذا الفريق ، فسافر إلى فرنسا ، وكان راتبه فى البعثة خمسين ومائتى قرش فى الشهر جعل نصفها لأهله . وقد درس فى فرنسا الهندسة العسكرية والمدنية . وكان مفتح العينين دقيق الملاحظة ، فأفاد مصر بمشاهداته شيئا كثيرا . وفى سنة ست وستين ومائتين وألف وعاد إلى مصر وعين مدرساً بمدرسة طرا ؛ وفى هذا الحين عزم على زيارة أهله ، ونحن نتركه يقص عليكم نبأ هذه الزيارة إذ يقول :

« ذهبت إلى بلدتنا برنبال ، وكان أهلى قد رجعوا إليها قبل ذلك بمدة . فوجدت أن أبى قد سافر إلى مصر لزيارتى ، ولم أجد فى المنزل إلا والدتى وبعض اخوتى ، وكان دخولى عليهم ليلا ، فطرقت الباب فقيل : من أنت ؟ فقلت ابنكم على مبارك . وكانت مدة مفارقتى لأمى أربع عشر سنة لم ترنى فيها ولم تسمع صوتى ، فقامت مدهوشة إلى الباب وجعلت تنظر وتحد النظر ، وكنت بقيافة العسكرية الفرنسية لابساً سيفا وكسوة تشريف ؛ وكررت السؤال حتى عرفت صوتى ، ففتحت الباب وعانقتنى ووقعت مغشياً عليها ، ثم أفاقت وجعلت تبكى وتضحك وتزغرت ، وجاء أهل البيت والأقارب والجيران وامتلأ المنزل ناسا ، وبقينا كذلك إلى الصباح والناس بين ذاهب وآيب » .

وبعد هذه الزيارة اتصل بمعية المغفور له عباس باشا الأول ، وقام بأعمال هندسية كثيرة . ووضع نظاما للمدارس الملكية تبلغ نفقاته ألف كيس . فاختاره عباس الأول ناظرا للمدارس الملكية ، فقام باعباء العمل على خير

الوجوه مشرفا ومعلما ومرشدا ومؤلفا وطابع كتب . وكأن ماأصابه فى نشأته الأولى من ويلات التعليم وسوء النظام وقسوة المعلمين كان حافزاً له على الإصلاح . ولما تولى المغفور له سعيد باشا عزله من نظارة المدارس ، وأمره أن يرافق الجيش إلى تركيا لمحاربة الروسيا، فأقام هناك نحو سنتين ، قاسى فيهما شدائد وأهوالا ، وعند عودته إلى مصر فصل من الخدمة ، فسكن بيتا صغيرا ، وعاد إلى ما كان عليه أولا من الفقر والضيق ، وذهب عنه — كما يقول — مارأى من الأموال والمناصب . ثم عاد إلى العمل ، وتنقل فى مناصب كان منها أن عين معلما للضباط يلقنهم مبادىء القراءة والكتابة ، فكان يخط لهم الحروف أحيانا على الأرض وأحيانا بالفحم على البلاط ، ثم فصل ، وقد كثرت نفقاته فى ذلك الوقت وأبهظه الدين ، فاشتغل بالتجارة . فكان يشترى بالمزاد ماتبيعه الحكومة من عقار وأدوات وكتب ويبيعه للتجار فربح وغنم . ولما تولى المغفور له إسماعيل باشا وصله بمعيته وعينه ناظرا للقناطر الخيرية ، ثم أضاف اليه إدارة السكك الحديدية ، وإدارة المدارس ، وإدارة ديوان الأشغال ، ثم نظارة عموم الأوقاف . تلك خمسة مناصب كاملة قام فيها جميعا بضروب شتى من الإصلاح وبخاصة التعليم . فقد وضع نظاما لإصلاح المكاتب الأهلية فى المدن والقرى ، وأوجد للمدارس مطبعة حروف ومطبعة حجر لطبع كتبها ، وأنشأ دار العلوم ، وأسس باشارة الخديوى اسماعيل باشا دار الكتب العامة ، جمع فيها نوادر الكتب ونفائسها التى كانت مفرقة فى المساجد والخزائن الخاصة ، وخصص بها معرضا لآلات العلوم الطبيعية والهندسية ، وضبط الأوقاف فى أنحاء القطر ، وبذل جهدا مشكورا فى إحيائها وصيانتها ، واستصدر أمرا خديويا بتنظيم الشوارع ورصفها ، وتحلية المدينة بالمتنزهات والميادين . وأنشئت فى أيامه ترعتا الإبراهيمية والإسماعيلية .

ومازال يتنقل فى المناصب ، ويفصل عنها ، حتى قلد نظارة المعارف ، سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية ، واستمر عاملا بها ثلاث سنوات . وفى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وألف وافته المنية . فكان الحزن عليه عاما شاملا .

والوقت لا يتسع لدراسة أخلاقه الكريمة بإسهاب وتفصيل ، ولكنا نستنبط ، موجزين ، أنه كان بعيد الآمال ، قوى الارادة ، شديد الثقة بنفسه ومواهبه ، راسخ الايمان بالله ، رضى النفس مطمئنها ، وثابا إلى الاصلاح ، لا تفتر همته ولا تنى عزيمته ، قوى الملاحظة واسع الفكر ، خصيب الانتاج مشغوفا بالتجديد ، وكان شعاره الدقة وحسن النظام ، مجداً مثمرا فهو حركة دائمة ، وقوة دائبة ، وكان بصيراً باقدار الرجال ، باراً بأهله ، شفيقا بالضعفاء والفقراء . وكانت داره ندوة علم وأدب للمعلمين والطلاب ، يطارحهم العلم ، ويوضح لهم السبيل .

ومن أشهر مؤلفاته الخطط التوفيقية ، وعلم الدين ، وآثار الاسلام فى المدنية والعمران ، ثم كثير من الكتب المدرسية والهندسية .

رحمه الله رحمة واسعة .